دراسة في مشكل القرآن
تأويل قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا) [الإسراء: 60]

*أسماء نايف محمد الخليلي**

ملخص

يناقش البحث الإشكال الظاهري في قوله تعالى ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [60: الإسراء] وبعد ذكر إجابات العلماء والمفسرين عن الإشكال ومناقشته في ضوء اللغة والسياق والمأثور، خلص البحث إلى وجود سر بلاغي في التعبير القرآني في لفظي (الرؤيا) و(الشجرة الملعونة)، والذي يلقي بظلاله على تلك الحقبة الزمانية التي وقعت فيها آية الإسراء والمعراج ويتوافق مع الحالة العامة والأجواء السائدة زمن وقوعه بما أثارته من اختلاف وبلبلة واضطراب في أوساط الكفار والمؤمنين.

الكلمات الدالة: مشكل القران، آية.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آلِه وأصحابه والسائرين على دربه والناهلين من أثره ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

فقد تختلف آراء المفسرين أحياناً كثيرة في تحديد معاني ودلالات الآيات القرآنية، وذلك تبعاً للمتغيرات المتنوعة التي تؤثر في عملية فهم النص وتأويله، فالاختلاف بين المفسرين في فهم النص القرآني له أسبابه المختلفة المتعلقة تارة بالنص القرآني واحتماله لوجوه التأويل المختلفة، والمتعلقة تارة أخرى بشخصية المفسر والفروق الذاتية بين المفسرين في امتلاك وتفعيل أدوات فهم النص القرآني[1]، لكن مما لاشك فيه أن دائرة الاختلاف في التفسير تتسع كلما ابتعدنا عن النواة الأولى أو القوم الأُول الذين نزل عليهم القرآن وعاشوا ملابساته وتنجيمه، فالخلاف بين السلف أقل منه بين المفسرين اللاحقين، وازداد الاختلاف فيما بعد بعدَ نشوء الفرق والمذاهب المختلفة، حيث كانت كل فرقة أو طائفة تلجأ إلى آيات القرآن لتنتصر لمذهبها وتنقض مذهب الفرقة المخالفة لها[2].

وموضوع هذا البحث آية قرآنية استشكل المفسرون ظاهرها، ألا وهي قوله تعالى ((وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)) [60: الإسراء] ووجه الاستشكال يكمن في ما يأتي:

1. ما المعنى المراد بالرؤيا، وإذا كان المراد بها كما ذهب جمهور المفسرين ما رآه صلى الله عليه وسلم في اليقظة بأم عينه ليلة أسري به من العجائب والآيات على اعتبار أنها الآية الخارقة المادية العظمى التي أجراها الله على يديه فكيف ينسجم هذا مع ما هو معروف ومشهور لغة مِنْ أن لفظ (الرؤيا) يستعمل للدلالة على الرؤيا المنامية؟
2. ما المراد بالشجرة الملعونة في القرآن الكريم ولا سيّما وأنه لم يرد في القرآن لعن شجرة من الأشجار ولم توصف بهذا الوصف أي شجرة؟ ثم ما ذنب الشجرة حتى تلعن؟ وما المعنى الذي أفاده اللعن هنا؟ وما وجه الفتنة فيها؟
3. ما الخيط الرابط بين كلٍّ من الرؤيا والشجرة الملعونة؟

تلك هي أسئلة البحث وسأقوم بتجلية وجه الإشكال، ملخصاً أقوال المفسرين في محاولة دفعه، وترجيح الصواب الدالِّ –لا على رفع الإشكال فحسب، بل المثبت لإعجاز القرآن الكريم والدقة المتناهية في الاستعمال القرآني والانتقاء البديع لألفاظه من خلال التعبير عن ما رآه عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء بلفظ (الرؤيا) وفي وصف شجرة الزقوم بـِ (الشجرة الملعونة). لذا جاءت هذه الدراسة محاوَلَةً للوقوف على آراء المفسرين في

* قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الحدود الشمالية. المملكة العربية السعودية. تاريخ استلام البحث 2015/8/25، وتاريخ قبوله 2016/1/3.

© 2017 عمادة البحث العلمي وضمان الجودة/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

تحديد تلك المعاني لحل تلك الإشكالات، أحببت أن أبذل جهداً فيها وأن أسهم في خدمة كلام الله وآي كتابه فأدفع عنها الإشكال، وأحاول أن أخطو خطوة لنفسي ولمن يقرأ من بعد في سبيل فهم أحسن وصولاً إلى قوله تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾.

أما بخصوص الدراسات السابقة لهذا الموضوع، فلا أعلم دراسة علمية مؤصلة تناولت هذا الموضوع في الآية مدار الدراسة على وجه الخصوص.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي في مقدمة ومبحثين على النحو الآتي:

المبحث الأول: عرض الإشكالات الواردة في الآية الكريمة.

المطلب الأول: موضوعات سورة الإسراء ومقاصدها.

المطلب الثاني: صلة الآية بما قبلها من الآيات.

المبحث الثاني: الإجابة عن الإشكالات الواردة في الآية.

المطلب الأول: أقوال المفسرين في المراد بالرؤيا ووجه الفتنة فيها مع بيان القول الراجح.

المطلب الثاني: أقوال المفسرين في المراد بالشجرة الملعونة ووجه الفتنة فيها مع بيان القول الراجح.

الخاتمة: وسأعرض فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ولا أدعي في هذا كله العصمة من الخطأ، فما وفقت فيه فلله الفضل والمنة، وما جانبت فيه الصواب، فأستغفره وأتوب إليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول
عرض الإشكالات الواردة في الآية

الأمر اللافت للنظر أنّ المفسرين القدامى لم يصرحوا بوجود إشكالات في هذه الآية، غاية الأمر أنهم بينوا الأقوال التي قيلت في بيان معنى الرؤيا التي أحدثت فتنة بين الناس والقول الراجح فيها، أما فيما يتعلق بالشجرة الملعونة فَيُعدُ شيخ البيان الإمام الزمخشري أول من لفت الانتباه إلى وجود إشكال فيها وإن لم يصرح بتسميته إشكالا، طرحه على هيئة سؤال عبر إحدى فنقلاته التي اشتهر بها متسائلاً عن الموضع الذي لعنت فيه شجرة الزقوم في القرآن الكريم حيث يقول: "فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل: وصفها الله باللعن، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون القَشب [وهو خَلْط الشَّيء بالطَّعام، ولا يكاد يكون إلاّ مكروها][3] الممحوق. وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب. [وقيل: هي الشيطان] وقيل: أبو جهل"[4]

في حين صرح بعض المفسرين المعاصرين إلى أن الآية يكتنفها بعض الغموض والإشكال من عدة نواح. يقول الطباطبائي: "فقرات الآية وهي أربع واضحة المعاني لكنها بحسب ما بينها من الاتصال وارتباط بعضها ببعض لا تخلو من إجمال والسبب الأصلي في ذلك إجمال الفقرتين الوسطيين الثانية والثالثة. فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التي أراها نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يقع في سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا، والذي ذكره من رؤياه في مثل قوله: {إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم} [الأنفال، 43] وقوله {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام} [الفتح– 27] من الحوادث الواقعة بعد الهجرة وهذه الآية مكية نازلة قبل الهجرة. ولا يدرى ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن التي جعلها فتنة للناس، ولا توجد في القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعنها، نعم ذكر سبحانه شجرة الزقوم ووصفها بأنها كانت فتنة كما في قوله {أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين} الصافات– 63 لكنه سبحانه لم يلعنها في شيء من المواضع التي ذكرها، ولو كان مجرد كونها شجرة تخرج في أصل الجحيم وسببا من أسباب عذاب الظالمين موجبا للعنها لكانت النار وكل ما أعد الله فيها للعذاب ملعونة ولكانت ملائكة العذاب وهم الذين قال تعالى فيهم: {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا} المدثر: 31 ملعونين وقد أثنى الله عليهم ذاك الثناء البالغ في قوله: {عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} التحريم: 6 وقد عد سبحانه أيدي المؤمنين من أسباب عذاب الكفار إذ قال: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم} التوبة: 14 وليست بملعونة"[5].

وهذا ما أكده الشيخ عبد الكريم الخطيب بل أضاف إليه إشكالات جديدة ملتبسة بالآية تدور حول الوقت الذي أخبر فيه سبحانه وتعالى المصطفى صلى الله عليه وسلم عن إحاطته بالناس وماهية القول الذي قيل له فيه ذلك والمعنى الذي أفادته الإحاطة هنا. يقول الخطيب: "فى هذه الآية أمور: أولها: قوله تعالى: «وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس» «إذ» هنا ظرفية، تشير إلى وقت قيل فيه هذا القول للنبي صلى الله عليه وسلم... فمتى كان ذلك؟ وما هو القول الذي قاله سبحانه وتعالى للنبى صلى الله عليه وسلم.؟ وقبل هذا وذاك... ما معنى الإحاطة بالناس؟ وما المراد منها؟ ثانيها: قوله تعالى:

«وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس» ما هى الرؤيا؟ وما الفتنة التي فتن بها الناس منها؟ وثالثها: قوله تعالى: «والشجرة الملعونة في القرآن». ما الشجرة الملعونة فى القرآن؟ ولم لعنت؟ ثم لم كانت فتنة؟ لم يذكر القرآن الكريم، شجرة موصوفة بتلك الصفة، وهى اللعنة... ومن هنا ذهب المفسرون مذاهب شتى فى هذه الشجرة"[6].

ولعلّي أرى أن أبرز إشكالين حاما حول الآية وكثرت حولهما أقوال المفسرين يكمنانِ في ماهية الرؤيا التي أثارت فتنة كبيرة في أوساط الكفار والمؤمنين أولاً وماهية الشجرة الملعونة ثانياً سيما مع عدم ورود شجرة لعنها الله في محكم كتابه، وعدم وجود مُسَوِّغٍ من ذنب أو نحوه يستدعي هذا اللعن والطرد من رحمة الله.

وقبل الإجابة عن ذلك حري بنا الوقوف على السياق الذي جاءت فيه الآية الكريمة بشقيه: السياق العام (سياق السورة الكريمة)، والسياق الخاص (سياق المقطع) الذي وردت فيه وعلاقته بالآية مدار البحث لما لذلك من أثرٍ بارز في تجلية الرؤية، وهذا يعيننا لاحقاً على الإجابة عن تلك الإشكالات.

المطلب الأول: موضوعات سورة الإسراء ومقاصدها

سورة الإسراء وتسمى أيضاً (سورة بني إسرائيل) وسورة (سبحان)[7]، وهي سورة مكية من أولها إلى آخرها على قول الجمهور، ولا يعتد بالأقوال التي جعلت بعض آياتها ومنها الآية مدار البحث تحمل الطابع المدني، لكونها لا تستند إلى دليل صحيح، والسبب الدافع للقول بمدنيتها هو اشتمالها على أحكام لا تناسب حال المسلمين قبل الهجرة[8]، جاءت في ترتيب المصحف بعد (سورة النحل) وقبل (سورة الكهف)، وتشترك هذه السورة مع مثيلاتها من السورة المكية في علاج موضوعات العقيدة (إثبات وحدانية الله، وإثبات البعث والجزاء)، ولكنها تفردت عن باقي السور المكية بذكر آية خارقة من الخوارق الحسية التي أجراها الله على يد المصطفى صلى الله عليه وسلم ألا وهي حادثة الإسراء والمعراج، وذكر بعض أحوال بني إسرائيل لم تذكر في غيرها من السور (علوهم وإفسادهم في الأرض الذي كان سببا في تسلط أعدائهم عليهم).

تحدث كثير من المفسرين والعلماء المتقدمين والمحدثين عن موضوعات السورة ومقاصدها، ولكن تبقى لصاحب الظلال نظرته العميقة لمحور السورة وشخصيتها. حيث يقول: "ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القوم منه في مكة. وهو القرآن الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن، وما يهدي إليه، واستقبال القوم له. واستطراد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها. وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي، والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع. كل ذلك بعد أن يعذر الله سبحانه إلى الناس، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل (وكل شيء فصلناه تفصيلاً)"[9].

ويرى سيد قطب– رحمه الله – أنّ السورة أنجزت المحور العام الذي تدور حوله في خمسة أشواط[10]:

الشوط الأول يبدأ بالإشارة إلى واحدة من أبرز الآيات الخارقة الباهرة التي تعد من الحجج القاطعة على صدق رسول الله وصدق رسالته ألا وهي حادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قُضِيَ فيه لبني إسرائيل، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين، بسبب طغيانهم وإفسادهم ثم يقرر أن الكتاب الأخير القرآن يهدي للتي هي أقوم ويقرر أيضاً قاعدة التبعة الفردية في الهدى والضلال، وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات والسلوك.

ويبدأ الشوط الثاني بقاعدة التوحيد، ليقيم عليها البناء الاجتماعي كله وآداب العمل والسلوك فيه، ويشدها إلى هذا المحور الذي لا يقوم بناء الحياة إلا مستنداً إليه.

ويتحدث في الشوط الثالث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولاً آخر، ويتكلموا بالتي هي أحسن.

وفي الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالخوارق فقد كذب بها الأولون، فحق عليهم الهلاك اتباعاً لسنة الله؛ كما يتناول موقف المشركين من إنذار الله لهم في رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم وطغيانهم.

أما الشوط الخامس فيتحدث عن كيد المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة. والمآل المترتب فيما لو أخرجوه قسراً ولم يخرج هو مهاجراً بأمر الله لحل بهم الهلاك الذي حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم. ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمضي في طريقه يقرأ قرآنه ويصلي صلاته، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل، ويعقب بأن هذا القرآن الذي أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين، ويستمر في الحديث عن القرآن وإعجازه. بينما هم يطلبون خوارق مادية. ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة، ويكل الأمر إلى الله...

وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه ويدعوهم ليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية على غرار الذين أوتوا العلم من قبله الذين تلقوه بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود.

المطلب الثاني: صلة الآية بما قبلها من الآيات

جاءت الآية الكريمة في سورة سميت باسم أعظم آية مادية خرقت حدود الزمان والمكان وحصلت على يد أشرف الأنبياء والمرسلين ألا وهي حادثة الإسراء، وقد ذُكِرَ في السورة ذاتها بعضٌ من تلك الخوارق التي كانَ كفارُ قريش يطلبونها ويلحون عليها بإصرار، فقد طلبوا نزول الملائكة، واقترحوا أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب، يفجر الأنهار خلالها تفجيراً! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً. أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم بكتاب مادي معه يقرؤونه. إلى آخر هذه المقترحات التي يمليها العنت والمكابرة، لا طلب الهدى والاقتناع، وقد كان المصطفى عليه السلام شديد الحرص على إيمانهم لاتقاء شرهم وكيدهم ومكرهم بالإسلام وأهله فجاءت الآية التي يدور عليها البحث في سياق بيان السبب الصارف عن إرسال الخوارق المادية على يدي نبيه صلى الله عليه وسلم وتطميناً لقلبه وتطييباً لخاطره بأن الله أحاط بالناس علما وقدرة فهو يعلم أنهم لن يؤمنوا حتى لو أرسل إليهم بتلك الخوارق وأجابهم إلى ما طلبوا وهو قادر عليهم لا يخرجون عن قبضته ومشيئته فلن يستطيعوا أن يمسوه عليه الصلاة والسلام بمكروه وفي هذا دعوة له ليمضي في الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة.

جاءت الآية الكريمة (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً) [60: الإسراء] مدار البحث في ترتيب المصحف الشريف عقب قول الباري (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً) [الإسراء: 59] وبين الآيتين وشائج من التلاحم والتعانق تكمن في الآتي[11]:

كان كفار قريش يلحون بإصرار على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكررون اقتراحهم وطلبهم أن يأتيهم بالخوارق المادية تعنتاً وعناداً و كانوا يتحججون بها ويعلقون عليها إيمانهم به وتصديقهم برسالته، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان كل أحد فأحب أن يجيبهم الله سبحانه وتعالى إلى مقترحهم طمعاً في إيمانهم وإراحة له ولأتباعه من أذاهم فجاءت الآية (وما منعنا أن نرسل الآيات إلا أن كذب بها الأولون) تبين السبب الصارف عن عدم إجابة كفار قريش إلى مقترحاتهم لعلمه سبحانه في الأزل بأنهم سيفعلون مثل ما فعل من سبقهم من الأولين وستكون ردة فعلهم واحدة ألا وهي التكذيب والجحود والكفران. فالأولون شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها، فعلم الله منهم أيضاً أنهم لو شاهدوها لكذبوا فكان إظهارها عبثاً، والعبث لا يفعله الحكيم وخص الباري آية ثمود بالذكر تحذيراً لهم بسبب أنهم عرب اقترحوا ما كان سبباً لاستئصالهم، ولأن كفار قريش كان عندهم من العلم بهم وبمساكنهم لقربها إليهم وكونها في بلادهم ما ليس لهم عند غيرهم، ولأن الناقة حيوان أخرجه من حجر فكانت دليلا وبينة واضحة على قدرته تعالى على الإحياء والبعث. وبينت الآية أنّ الأقوام السابقين لما أجابهم الله لما طلبوا من الخوارق حل بهم الهلاك وعذاب الاستئصال جريا على السنة الإلهية لكن اقتضت حكمة الله وعلمه أن لا يجيب قريشًا لما طلبوا لأنه شاء ألا يهلكهم لعلمه أنه سيؤمن من أصلابهم وأعقابهم من سيكون لهم شأن في نصرة هذا الدين وتمكينه في الأرض.

ثم جاءت الآية الكريمة– مدار البحث– تسلية له صلى الله عليه وسلم عما عسى أن يعتريه من الحزن والضيق لطعن الكفار به نتيجة عدم إجابتهم إلى إنزال الآيات المقترحة وتطميناً له بأنه في حفظ الله وعنايته وتحريضاً له بالاستمرار في تبليغ الرسالة دون التفات إلى ما يطلبه الكفار والمشركون من معجزات وخوارق لعلمه سبحانه في سابق الأزل من سيؤمن منهم ومن سيكفر، فالشقي منهم لا يؤمن سواء أجاب الله مقترحاتهم أم لا والسعيد لا يحتاج إلى تلك الخوارق ليؤمن، وضرب الله مثلاً على تلك الخوارق (الرؤيا والشجرة الملعونة) التي كذبوا وجحدوا بها ولم تدفعهم للإيمان بالله بل على العكس من ذلك كانت ردة فعلهم سلبية حيث كانت سببا لتماديهم في الكفر والطغيان والعداء للدين وأهله.

المبحث الثاني
الإجابة عن الإشكالات الواردة في الآية

صدرت الآية الكريمة بجملة {وإذ قلنا لك} وهي إما أن تكون معطوفة على جملة {وما منعنا أن نرسل بالآيات} وإما أن تكون جملة معترضة. و(إذ) متعلقة بفعل محذوف، أي اذكُرْ إذ قلنا لك كلاماً هو وعد بالصبر، أي اذكر لهم ذلك وأعدهُ على أسماعهم، أو هو فعل {اذكر} على أنه مشتق من الذُّكر بضم الذال وهو إعادة الخبر إلى القوة العقلية الذاكرة[12].

تصدير الآية بهذا التعبير {وإذ قلنا لك} له دلالاته ومعانيه، إذ يفيد أن ما احتوته الآية قد سبق الوحي به للنبي صلى الله عليه وسلم[13]، وعليه فالمعنى إنه قد سبق إعلام النبي وإخباره بما تضمنته الآية من إحاطته سبحانه وتعالى بالناس. والسؤال الذي ينهض هنا ما معنى الإحاطة هنا؟ ومن المقصود بالناس

الذين سبق أن أعلمنا الله بإحاطته بهم؟ هل المراد به جميع الناس مؤمنهم وكافرهم أم فئة معينة منهم؟.

معنى الإحاطة الواردة في الآية

الإحاطة في اللغة تأتي بمعنى الحفظ والعناية والرعاية والصيانة[14]. وقد تعددت أنظار المفسرين في المعنى المراد بالإحاطة الواردة في الآية الكريمة تبعاً للاختلاف الحاصل بينهم في المعنى الذي أراده الباري بِـ (الرؤيا) إلى عدة أقوال:

القول الأول: المراد بالإحاطة الإحاطة العلمية والمعنى أن الله أحاط بهم بعلمه فلا يخرج عن علمه شيء ولا يخفى عليه منهم شيء[15] فعلم أن شيمة الناس الاستمرار في الفساد والفسوق واقتداء أخلافهم بأسلافهم في الإعراض عن ذكر الله وعدم الاعتناء بآيات الله، وعلم أن هذه السنة ستجري بينهم كما كانت تجري فيمن سبقهم[16].

القول الثاني: أحاط بهم بقدرته، فهم في قبضته لا يخرجون عن مشيئته[17].

القول الثالث: الإحاطة بمعنى المنع والحفظ والعصمة، أي إنَّ الله منعك يا محمد وحفظك وعصمك من القتل أو أنْ ينالك مكروه حتى تبلغ الرسالة. وفيه تحريض للنبي الكريم على الاستمرار في تبليغ الرسالة وعدم التهيب منهم[18].

أقول: ولعلي أرى أن هناك تداخلاً كبيرا بين القولين الثاني والثالث، وأن العلاقة بينهما تلازمية تكاملية، فمن لوازم إحاطة قدرته سبحانه وتعالى بجميع الخلق عدمُ خروجهم عن قبضته وسلطان قهره وفي هذا تبشير وتأكيد بحفظه صلى الله عليه وسلم ومنعه من كفار قريش وعدم تمكنهم من أن يمسوه بسوء أو أذى أو مكروه.

القول الرابع: أحاط بهم في إضلالهم وهدايتهم، وأن كل واحد ميسر لما خلق له، أي فلا تهتم أنت بكفر من كفر، ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك إن الله محيط بهم مالك لأمرهم[19].

القول الخامس: الإحاطة بمعنى الغلبة والظهور[20] وأصحاب هذا القول اختلفوا في الوقت الذي وقعت فيه الإحاطة تبعاً لاختلافهم في المقصود بِـ (الناس) إلى فريقين:

الفريق الأول: الذين ذهبوا إلى أن المراد بالناس أهل مكة قالوا: إن معنى (أحاط بالناس) غلبته صلى الله عليه وسلم وظهوره على أهل مكة وهذه بشارة له بالنصر عليهم. وهؤلاء اختلفوا في الوقت الذي وقعت فيه الإحاطة إلى قولين:

الأول: يوم بدر على وجه الخصوص وهذا ما رجحه واختاره الزمخشري وبناء عليه حمل الإحاطة على إهلاك قريشٍ يوم بدر[21] ورد عليه بأنه تأويل بعيد، لعدم حدوث فتنة ولا كفر بعد إهلاك قريش في بدر أولاً، ولعدم وجود قرينة تخصص الإحاطة بما جرى في بدر لأن الأصل إطلاق العام على عمومه، حتى يقوم دليل أو قرينه على إرادة التخصيص ثانيا: ولأن الآية مكية، وما أجيب عنه بأن الكلام كان تبشيرا بما سيكون يوم بدر رد عليه بأن الألفاظ لا تساعده، ولا تومئ إليه ثالثا[22].

الثاني: يومُ بدر ويومُ الفتح. وعني بالإحاطة الإهلاكُ الموعود، وهو ما جرى يوم بدر ويوم الفتح [23].

الفريق الثاني: الذين ذهبوا إلى أن المراد بالناس اليهود ورجحوا أن الوقت الذي وقعت فيه الإحاطة هو يوم الأحزاب والخندق وهذا ما اختاره العسكري[24].

وذهب هؤلاء إلى أن التعبيرَ عن الإحاطة جاء بصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوع إحاطة الله بالناس في المستقبل القريب. وفي هذا تبشير له صلى الله عليه وسلم[25].

القول السادس: الإحاطة هنا في الآية مختلفة متعددة وليست واحدة، لاختلاف المقصود بالناس، فلكل من المؤمنين والكافرين إحاطة تناسبه، فالإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله تأتي بمعنى العناية والحماية والحفظ حتى لا ينالهم أذى، أما الكافرون فهي إحاطة حصار لا يفلتون منه ولا ينفكون عنه[26].

أقول: أرى أن هناك تقارباً كبيراً بين جميع الأقوال التي قيلت في معنى الإحاطة، ولكنني وبالنظر في السياق الذي وردت فيه الآية أرى أن أقربها إلى الصواب ما جاء في القولين الأول والثاني لتشمل علمه وقدرته سبحانه الشاملة لجميع خلقه مؤمنهم وكافرهم بلا استثناء فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته وقهره وسلطانه فالله يعلم أنه لو أرسل لهم الآيات لن يزدادوا إلا كفرا وطغيانا، وفي الوقت نفسه كان السبب وراء سؤال النبي من الله وإلحاحه بإرسال الآيات تلبية لمقترحات كفار قريش اتقاء شرهم وبطشهم وأذاهم المادي والمعنوي فجاءت الآيات تؤكد أنهم في قبضته سبحانه وتحت قدرته فلا يستطيعون النيل منه بسوء وفي هذا تطمين له بما يدفعه للاستمرار في طريق الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام.

وقف العلماء والمفسرون عند كلمة (الناس) الواردة في الآية {إن ربك أحاط بالناس}، واختلفوا في المراد بها تَبَعًا لاختلافِهم في تفسيرِ الجُملة الكريمة كما سبق أن أشرنا، وتَحصَّلَ من ذلك ثلاثةُ أقوال :

1. أنَّ المرادَ الناسُ عمومًا.
2. أنَّ المرادَ أهلُ مكَّةَ خصوصًا.
3. أنَّ المرادَ اليهودُ خصوصًا.

سبق أن أشرنا أنّ التعبير {وإذ قلنا لك} يفيد أن ما احتوته الآية قد سبق الوحي به للنبي صلى الله عليه وسلم، وإعلامه وإخباره بما تضمنته الآية من إحاطته سبحانه وتعالى بالناس،

وهذا يثير في النفس تساؤلاً كبيراً حول ماهية هذا القول، وهل ورد في القرآن أو السنة ما يشير إليه؟ ومتى قيل للنبي الكريم ذلك القول؟.

وبعد الاطلاع تبين تعدد أقوال المفسرين في الإجابة عن ذلك بناء على اختلافهم في معنى الإحاطة، وانقسموا في هذا إلى فريقين:

الفريق الأول: فسر الإحاطة بحفظ الله لنبيه ومنعه وعصمته من أن يناله سوء أو مكروه من قبل هؤلاء الكفار لكونه سبحانه أحاط بقدرته جميع الخلق فلا يخرج عن قبضته أحد، وعليه فلن يتمكن هؤلاء الكفار من الوصول إليه وإيذائه فيطمئن قلبه وفؤاده، ويمضي في طرق الدعوة، ومن تبنى هذا القول ذهب إلى أنه لا يخرج عن ثلاثة احتمالات[27]:

- وإمّا أن يكون أريد به بعض الآيات التي وردت في سور سابقة النزول فيها شيء من معنى التطمين مثل آيات سورة ص قال تعالى (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ) [11: ص] وسورة القمر (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [44 45: القمر].
- وإما أن يكون نزل في هذا الأمر قرآن ثم رفع لحكمة ربانية.
- وإمّا أن يكون وحيا غير قرآني ورد فيه هذا التطمين بمعنى أنه جاء في السنة النبوية ما يطمئنه عليه الصلاةُ والسلام. مثاله ما جاء في سورة الأنفال {وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم}، هذا الوعد لم يرد في القرآن ولكنه ورد في السنة فقد روي حديث فيه ذلك حين قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بدر "سيروا وأبشروا فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين".

الفريق الثاني: حمل الإحاطة على علمه سبحانه الذي وسع كل شيء، وبناء عليه ذهب إلى أن كل آية أخبرنا فيها الباري بعلمه الشامل لكل شيء تصلح أن تكون هذا القول وأقربها قوله تعالى: «وربك أعلم بمن في السماوات والأرض». يقول عبد الكريم الخطيب: "إحاطة الله بالناس، علمه بهم، علما محيطا، كاشفا لكل شيء منهم... وإذن فكل آية فى القرآن جاءت تحدث عن علم الله، صالحة لأن تكون هى هذا القول الذي قيل للنبى، والذي دعا هنا إلى تذكره... وأقرب آية نجدها هنا، هى قوله تعالى: «وربك أعلم بمن في السماوات والأرض» وقد ذكرت قبل هذه الآية بثلاث آيات... فتكون إذن هي الآية المقصودة، ويكون وقتها معلوما للنبى!- ويكون معنى قوله تعالى: «وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس» هو رد على المشركين الذين يقترحون الآيات المادية فهذه الآيات إنما ينزلها الله حسب مشيئته، وبما يقضى به علمه في عباده [28].

وفي إضافة لفظ الرب إلى ضمير الرسول ما يفيد أن هذا القول مسوق مساق التكرمة للنبيء وتصبيره، وأنه بمحل عناية الله به إذ هو ربه وهو ناصره[29].

المطلب الأول: أقوال المفسرين في معنى الرؤيا وبيان القول الراجح

اختلفت أنظار المفسرين في المعنى المقصود بالرؤيا على حسب ما يتراءى لكل ناظر، وبناء على كل قول اختلف وجه الفتنة في الرؤيا، وبعد الاطلاع على أقوال العلماء والمفسرين الأجلاء يمكن حصر ما قيل في بيان المراد بالرؤيا على النحو الآتي:

القول الأول: ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة ليلة الإسراء والمعراج حين أسري به من مكة إلى بيت المقدس من العجائب والآيات، وهو قول جمهور المفسرين[30]. وهؤلاء حملوا هذه الرؤيا على الرؤيا التي وردت الإشارة إليها في سورة النجم في قول الباري: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم: 12-18][31].

وكانت الفتنةُ في الرؤيا ارتداد بعض ضعيفي الإيمان ممن لم يجاوز الإيمان ألسنتهم، وتمادِي أهل الشرك في شركهم وغيهم وسخريتهم، حين أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أُسريَ به، لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك وتصديقه، لاعتقادهم باستحالة ذهابه إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة في مدة زمنية قصيرة لا تتعدى ليلة واحدة، قالوا: كيف يصلي ببيت المقدس، ويخترق السبع الطباق، ويرى ما رأى في ليلة واحدة، ويصبح في محله بمكة؟ هذا محال! فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به، واعتقادهم أنه لا يمكن[32].

القول الثاني: رؤيا منام رأى فيها عليه الصلاة والسلام أنه دخل مكة هو وأصحابه- وهو يومئذٍ بالمدينة- وأصحاب هذا القول حملوا الرؤيا الواردة في آية الإسراء على الرؤيا التي قال الله فيها: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) [الفتح: 27]. وينسب هذا القول إلى الجبائي وأبي مسلم الأصفهاني[33].

وكانت الفتنةُ فيها أن النبي الكريم بعد أن رأى تلك الرؤيا عجّل السير إلى مكة، فردّه المشركون، ففتن المسلمون بذلك، فقد وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام، ولكن منعوا من الدخول عند

الحديبية، وتعجبوا أن يعدهم رسول الله وعداً ولا ينجزه لهم فكانت رجعته فتنتهم. فقالت أناس: قد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها، حتى إن الفاروق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألسنا على الحق؟ أليسوا هم على الباطل؟ ألست رسول الله؟ فيقول أبو بكر: الزم غرزه يا عمر، إنه رسول الله[34].

القول الثالث: رؤيا منام رأى فيها عليه الصلاة والسلام أقواماً يعلون على منابره وأعطوا مالا ففتنوا[35] وحجتهم ما روي في سبب نزول الآية عن سهل بن سعد، قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني فلان ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكا حتى مات. قال: وأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك وَما جَعَلْنا الرّؤْيا التي أَرَيْناكَ إلاّ فِتْنَةً للنّاسِ»... الآية.

القول الرابع: (رؤيا منام) رأى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بني أمية يعلون على المنابر. وقد ورجحه واختاره جمهور مفسري الشيعة[36]. ويحجتون لتأييد قولهم بما يوردونه في ثنايا تفاسيرهم من روايات ينسبونها لأبي جعفر في سبب نزول الآية مفادها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاهتم لذلك وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات، فنزلت الآية وحينا ينسبونها لسهل بن سعد. وأكدوا قولهم بما روي في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء من قريش"[37] زاعمين أن هذه الرواية تدعم تفسير الرؤيا ببني أمية[38].

أما وجه الفتنة في ذلك، فمن جهة تملكهم الدنيا وإساءتهم الحكم وتغلبهم على الناس، وقتلهم ذريته صلى الله عليه وسلم[39].

القول الخامس: (رؤيا منام) رآها الرسول صلى الله عليه وسلم في مضمون وقعة بدر قبيل وقوعها رأى فيها مصارع صناديد قريش، وحجة أصحاب هذا القول ما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماءَ بدرٍ قال: «والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض، هذا مصرَعُ فلان وهذا مصرعُ فلان» وقوله تعالى: {إذ يريكهم الله في منامك قليلا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ}[40]، فتسامعت به قريش وسخروا منه، فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاءً. وعليه يكون عذابهم بالسيف في موقعة بدر فتنة لهم.

مناقشة الآراء وبيان القول المختار في معنى الرؤيا

الذي يترجح لدينا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو القول الأول وهو ما عليه جمهور العلماء والمفسرين من أهل السنة والجماعة والذي مفاده أن المراد بالرؤيا ما رآه (صلى الله عليه وسلم) عياناً ليلة الإسراء من عجائب وآيات للعديد من الأدلة التي تقويه وتؤيده:

1. لأن هذا القول أجمع عليه الحجة من أهل التأويل[41].
2. ويقوي هذا الرأي ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} قَالَ هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ} شَجَرَةُ الزَّقُّومِ"[42].
3. ويؤيد هذا القول أيضاً ما جاء في قوله تعالى: {التي أريناك} فإنه وصف للرؤيا ليُعلم أنها رؤية عين[43].

أما باقي الأقوال التي قيلت في معنى الرؤيا فغير مسلم بها و لا تخلو من اعتراضات:

أما القول الثاني ومفاده أنها رؤيا منام رأى فيها عليه الصلاة والسلام أنه دخل مكة عام صلح الحديبية فقد ضعفه بعض المفسرين؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة[44]، فدخوله عليه الصلاة والسلام مكة المكرمة حدث بعد الهجرة والآية مكية نازلة قبل الهجرة[45]. وما أجيب عنه بأنه لا يبعد أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان وقع حقيقة بالمدينة فغير سديد ولا يخلو من التكلف[46].

أما القول الثالث: ومفاده أنها رؤيا منام رأى فيها عليه الصلاة والسلام أقواماً يعلون على منابره وأعطوا مالا ففتنوا. فأقول: هذا قول ضعيف ولا يعتد به فضلا عن أنه لم يكن سببا في فتنة الناس.

أما القول الرابع: ومفاده أنها (رؤيا منام) رأى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بني أمية يعلون على المنابر. وهو ما رجحه جمهور مفسري الشيعة. وحجتهم ما روي في سبب نزول الآية– ويروونه عن سهل بن سعد تارة وعن أبي جعفر تارة أخرى– ومفاده أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكا حتى مات. قال: وأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك {وَما جَعَلْنا الرّؤْيا التي أَرَيْناكَ إلاّ فِتْنَةً للنّاسِ}. فقول غير مسلم ولا يعتد به كما صرح بعض المفسرين[47]، ولا أساس له من الصحة ولا يعول عليه لعدة أمور:

1. لكون الحديث الوارد بذلك ضعيفًا لا تقوم به حجة، وجميع أسانيد الروايات ضعيفة فأحد رجال السند محمد بن الحسن بن زبان وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جداً[48].
2. فضلاً عن ذلك فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده ويراد بالفتنة ما حصل من الإساءة لرسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا[49].

3. كما أن هذه الرواية تقتضي أن تكون الآية مدنية؛ لأنه لم يكن عليه السلام قد بني مسجداً ولا منبراً إلاّ في المدينة. ومعلوم أن السورة مكية[50].
4. لأنَّ هذا القولَ يتعارض مع السياق الذي جاءت فيه الآية بصدد الحديث عن مواقف كفار قريش وهم يطلبون خوارق مادية واقتراحهم الآيات وطعنهم في نبوته صلى الله عليه وسلم وفي حادثة الإسراء واستعانتهم باليهود وإلحاقهم الأذى به عليه الصلاة والسلام[51].

أقول: ويبدو أثر التشيع واضحاً في حمل الرؤيا على بني أمية. يقول محمد عزة دروزة: "ونحن نعتقد أن الرواية من مصنوعات الشيعة. وفي تفسير الطبرسي الشيعي رواية عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد الله أن الشجرة الملعونة في القرآن هي بني أمية، والهوى الحزبي والتعسف بارزان على هذه الروايات شأن كثير مما يرويه مفسرو الشيعة"[52].

أما القول الخامس: ومفاده أنها (رؤيا منام) تدور حول غزوة بدر قبيل وقوعها على وجه التحديد رأى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم مصارع صناديد قريش[53] فقول غير مسلم وحكم عليه بالضعف[54] واعترض عليه بأن غزوة بدر من الحوادث الواقعة بعد الهجرة وهذه الآية مكية نازلة قبل الهجرة[55]، يضاف إلى هذا أن تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة لم تكن سببا في فتنة الناس[56].

الإشكال الوارد على القول الراجح في معنى الرؤيا

سبق أن بينا أن القول الراجح هو القول القائل بأن الرؤيا هي ما رآه عليه الصلاة والسلام في اليقظة من عجائب وآيات ليلة أسري به، ولكن يواجهنا إشكال من ناحية لغوية يكمن في كون لفظ (الرؤيا) اشتهر في الاستعمال اللغوي إطلاقه على ما يرى في المنام وليس على ما يرى في الحقيقة، وهذا يتعارض مع ما ثبت من كون حادثة الإسراء حصلت في اليقظة إذا لو حصلت في المنام لما كانت آية خارقة ولما وقعت الفتنة حتى ارتد بعض من آمن. وقد أجيب عن هذا الإشكال بعدة أجوبة:

1. لا فرقَ بين الرؤيا وبين الرؤيةِ[57]، إذ هما مصدران من فعل واحد (رأى)، وأخذا من معنى واحد[58]. فلا فرق بين أن يقول القائل: رأيت فلانا رؤية، ورأيته رؤيا، إلا أن الرؤية يقل استعمالها في المنام، والرؤيا يكثر استعمالها في المنام، ويجوز كل واحد منهما في المعنيين[59].
2. الرؤيا تطلق حقيقة على رؤيا المنام ورؤية اليقظة ليلا[60]، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، وإطلاق الرؤيا على رؤية اليقظة وارد في لغة العرب واستشهدوا بقول الشاعر الراعي يصف صائداً:

وكبر للرؤيا وهش فؤاده
بويش عظيم كان جمائلاً

أي: وسر لرؤيته للصيد الذى سيصيده[61].

3. ومما أجيب به عن الإشكال أنه إنما أطلق على ما رآه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء رؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا، لما رأى فيها من عجائب سماوية وأرضية، أو لوقوعها ليلا أو لسرعتها كأنها منام[62].
4. البعض زعم أنها سميت رؤيا بناء على اعتقاد من اعتقد أنها منامية وإن كانت الحقيقة غير ذلك[63]. فالله سماها رؤيا مشاكلة لتسميتهم إياها رؤيا وجرياناً على زعمهم كما سمى الأصنام آلهة[64].
5. وقيل إن سر اختيار كلمة (رؤيا) للدلالة على غرابتها كما لو كانت شيئا لا يحصل إلا في المنام والأحلام يقول الشعراوي: "لكن الحق سبحانه اختار كلمة (رؤيا) ليدل على أنها شيء عجيب وغريب كما نقول مثلاً: هذا شيء لا يحدث إلا في المنام. وهذا من دقة الأداء القرآني لأن الإعجاز في رحلة الإسراء كامن في الفترة الزمنية التي استغرقتها إذ لم تتجاوز الليلة[65].

وقد بلغ التعصب المذهبي عند الطباطبائي مبلغاً عظيماً حدا به إلى إبطال كل ما قاله جمهور المفسرين جواباً عن هذا الإشكال بلا دليل يستند إليه بل خالف ما هو ثابت في اللغة متنصراً لقوله الذي حمل فيه الرؤيا على بني أمية حيث يقول: "أما ما ذكروه في معنى الرؤيا فما قيل: إن الرؤيا مصدر مرادف للرؤية أو إنها بمعنى الرؤية ليلا يرده عدم الثبوت لغة ولم يستندوا في ذلك إلى شيء من كلامهم من نظم أو نثر إلا إلى مجرد الدعوى. وأما قولهم: إن ذلك مشاكلة لتسمية المشركين الإسراء رؤيا أو جرى على زعمهم أنه رؤيا فيجب تنزيه كلامه سبحانه من ذلك البتة فما هي القرينة الدالة على هذه العناية وأنه ليس فيه اعتراف بكونها رؤيا حقيقة؟ ولم يطلق تعالى على أصنامهم "آلهة" و"شركاء" وإنما أطلق {آلهتهم} و{شركائهم} فأضافها إليهم والإضافة نعمت القرينة على عدم التسليم، ونظير الكلام جار في اعتذارهم بأنه من تشبيه الإسراء بالرؤيا فالاستعارة كسائر المجازات لا تصح إلا مع قرينة، ولو كانت هناك قرينة لم يستدل كل من قال بكون الإسراء منامياً بوقوع لفظة الرؤيا في الآية بناء على كون الآية ناظرة إلى الإسراء"[66].

ولست أدري ما السبب وراء كل هذا أهو سبب سيكولوجي نفسي يعود في أصله ومنشأه إلى ذلك الحقد الدفين الذي

يضمره الشيعة على الأمويين أم هو التعصب الأعمى الذي حالَ بينَه وبينَ الرجوع إلى كتب أمهات اللغة وأخذها من مظانها الأصلية التي جاء فيها التصريح بأمرين:

الأول: أن هناك فرقاً في المعنى بين كُلٍّ من الرؤيا والرؤية رغم أنهما مشتقان من فعل واحد وهو (رأى)، وهو كما يقول صاحب (مقاييس اللغة): "أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة. فالرَّأي: ما يراه الإنسانُ في الأمر، وجمعه الآراء والرُّئْيُ: ما رأت العينُ مِن حالٍ حسنة. والعرب تقول: رَيْتُهُ في معنى رأيْته وتراءَى القوم، إذا رأى بعضهم بعضاً. وراءى فلانٌ يُرائي. وفَعَل ذلك رِئاءَ النّاس، وهو أن يَفعلَ شيئاً ليراه النّاس. والرُّوَاء: حُسن المنْظَر[67].

أما الرؤيا فهي كما يقول صاحب (المفردات): "ما يرى في المنام، وهو فعلى، وقد يخفف فيه الهمزة فيقال بالواو"[68].

الثاني: أن لفظ (الرؤيا) رغم أنه من المشهور استعماله فيما يراه النائم إلا أنها قد تستعمل فيما يرى في اليقظة وهناك العديد من الشواهد على ذلك ليس فقط ما قاله الشاعر الصائد:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده

وبشر نفسا كان قبل يلومها

بل هناك شاهد آخر وهو ما قاله أبو الطيب المتنبي:

مضَى الليلُ والفضلُ الذي لَكَ لا يَمْضِي

ورؤياك أحلى في العيون من الغَمض

يقول صاحب لسان العرب: "الرؤية بالعين تتعدى إلى مفعول واحد وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين يقال رأى زيدا عالما ورأى رأيا ورؤية وراءة مثل راعة وقال ابن سيده الرؤية النظر بالعين والقلب... والرؤيا ما رأيته في منامك... ورأيت عنك رؤى حسنة حلمتها وأرأى الرجل إذا كثرت رؤاه بوزن رعاه وهي أحلامه جمع الرؤيا ورأى في منامه رؤيا على فعلى بلا تنوين وجمع الرؤيا رؤى بالتنوين... والرؤيا ما رأيته في منامك... وقد جاء الرؤيا في اليقظة قال الراعي:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده

وبشّر نفساً كان قبل يلومها

وعليه فسر قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس قال وعليه قول أبي الطيب ورؤياك أحلى في العيون من الغمض التهذيب الفراء"[69].

ويقول صاحب (المخصص): قال أبو الحسن الأخفش، هي الرؤيا والريا وزعم أبو علي أنه قلب بدلي... وابن جنى، لا يستعمل الرؤيا إلا في النوم وقد جسر عليه المتنبي جاهلا به في قوله: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض. وعليه يجوز أن يكون الرؤيا في اليقظة كقوله تعالى "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك" في قول من قال إن ذلك الأمر كان في اليقظة وإلا فقول ابن جنى صحيح"[70].

أقول: وبعد النظر في كتاب الله تبين أنّ كلمة رؤيا وردت في القرآن الكريم ست مرات في أربع سور، ولقد كان لسورة يوسف عليه السلام النصيب الأكبر حيث وردت فيها كلمة الرؤيا ثلاث مرات.

- الموضع الأول جاء في سورة يوسف في ثلاثة آيات جاءت كلها بمعنى الرؤيا المنامية (في موضعين منها كانت تدور حول رؤيا يوسف عليه السلام وفي موضع واحد كانت تدور حول رؤيا ملك مصر).
- (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) [5: يوسف].
- (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) [43: يوسف].
- (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) [100: يوسف].
- الموضع الثاني جاء في سورة الإسراء في (الآية التي يدور عليها البحث).
- الموضع الثالث جاء في سورة الصافات لتدل على رؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام حين رأى أنه يذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام. (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [104-105: الصافات].
- الموضع الرابع جاء في سورة الفتح ليدل على رؤياه صلى الله عليه وسلم بدخول المسجد الحرام وأداء مناسك العمرة (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) [27: الفتح].

واللافت للنظر أن كلمة الرؤيا في جميع هذه المواضع التي وردت فيها- باستثناء الآية مدار البحث- جاءت بمعنى الرؤيا المنامية دون إثارة أي إشكال وجدال وخلاف فيها كما هو الحاصل في الآية التي بين أيدينا.

لعلي أرى بعد التأمل والتفكر في السر الكامن وراء التعبير عن ما رآه رسول الله بأم عينيه حال اليقظة ليلة أُسري به بجسده وروحه من آيات وعجائب بلفظ (الرؤيا) الذي اشتهر في الاستعمال اللغوي إطلاقه على ما يراه النائم الأمر الذي أثار جدلاً كبيراً وحيرة عارمة في صفوف المفسرين والعلماء مما دفع بعضهم إلى القول إن الإسراء كان مناما والبعض الآخر إلى التصريح بوقوع الإسراء مرتين مرة حال اليقظة ومرة في المنام والبعض إلى عد الآية مدنية رغم مكية السورة وحمل الرؤيا على ما رآه عليه الصلاة والسلام عام صلح الحديبية تارة وعلى

ما رآه في موقعة بدر تارة أخرى...، إن ما أثاره لفظ الرؤيا من جدال يشبه تماما ما أثارته حادثة الإسراء من الاختلاف والجدال والحيرة والتساؤل في عقول الجميع وقلوبهم الكفار من قريش والمؤمنين على حد سواء حتى آل المآل إلى ارتداد البعض من ضعاف الإيمان.

أقول: إن التعبير بهذا اللفظ (الرؤيا) وما أحدثته من اختلاف وجدل حول ماهية الرؤيا يعيد بالذاكرة ويأخذنا إلى تلك الحقبة الزمنية التي وقعت فيها حادثة الإسراء والمعراج التي خرجت عن المألوف المعهود وما أثارته من جدل واسع وزيادة تكذيب الكفار وارتداد من لم يستقر الإيمان في قلوبهم لعدم إيمانهم المطلق بقدرته تعالى التي تفوق حدود الزمان والمكان وما نشأ عنه من عدم قدرة عقولهم على استيعاب وقوعها لاستغراقها مدة زمنية قصيرة جداً لا تتجاوز الليلة قطع فيها المصطفى عليه الصلاة والسلام تلك المسافة الطويلة حيث كانوا في العادة يقضون أشهرا طويلة في قطع تلك المسافة إذ لم تتوافر لديهم في ذلك العصر وسائل النقل الحديثة المتطورة العالية السرعة كما هو الحال في عصرنا الحالي، ولو أن أحدهم أخبرنا الآن بقطع تلك المسافة التي استغرقها رسول الله ليلة الإسراء بهذه المدة الزمنية القصيرة بالسفر جواً عبر الطائرة لما أثار لدينا الدهشة والاستغراب مطلقا.

فكما أن الإسراء خرج عن المألوف المعتاد لدى البشرية في ذلك العصر كذلك جاء هذا اللفظ (الرؤيا) خارجا عن المشهور في اللغة وخارجا عن المشهور في الاستعمال القرآني ففي جميع المواطن وردت هذه الكلمة بمعنى الرؤيا المنامية باستثناء هذه الآية. وكما أن الإسراء أحدث اختلافا وجدالا واسعاً لدى المسلمين والكافرين على وجه الخصوص كذلك جيء التعبير بهذا اللفظ بهذه الصورة مثيرا جدلا واسعاً في أروقة المفسرين والعلماء.

ومن أروع ما قرأت مما قيل في سر عدول الباري عن الرؤية البصرية إلى الرؤيا المنامية رغم وقوع الإسراء يقظة وعياناً ما خطه يراع الإمام الشعراوي– رحمه الله– حيث يقول: "وقد يقول قائل: وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية؟ إنه كان رؤية بصرية، فما سر عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى الرؤيا المنامية؟ وكيف يعطي الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول: إن الإسراء والمعراج كان مناماً؟ نقول: ومن قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية؟ إنها في لغة العرب تطلق على المنامية وعلى البصرية، بدليل قول شاعرهم الذي فرح بصيد ثمين عن له:

فكبر للرؤيا وهَشَّ فؤاده
وبشر نفساً كان قبل يلومها

أي: قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه، فعبر بالرؤيا عن الرؤية البصرية. لكن الحق سبحانه اختار كلمة (رؤيا) ليدل على أنها شيء عجيب وغريب كما نقول مثلاً: هذا شيء لا يحدث إلا في المنام. وهذا من دقة الأداء القرآني، فالذي يتكلم رب، فاختار الرؤيا؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس في ليلة. فوجه الإعجاز هنا ليس في حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها في رحلات التجارة أو غيرها، بل وجه الإعجاز في الزمن الذي اختصر لرسول الله، فذهب وعاد في ليلة واحدة، بدليل أنهم سألوا رسول الله "صف لنا بيت المقدس". ولو كانوا يشكون في الحدث ما سألوا هذا السؤال إذن: فاعتراضهم على وقت هذه الرحلة التي كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً، ويخبر محمد أنه أتاها في ليلة واحدة، ولأن الإسراء حدث في هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يطلق عليه رؤيا، لأن الرؤيا المنامية لا زمن لها، ويختصر فيها الزمن كذلك.

ومن ناحية أخرى، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية، أكانت توجد فتنة بين الناس؟ وهب أن قائلاً قال لنا: رأيت الليلة أنني ذهبت من القاهرة إلى نيويورك، ثم إلى هاواي، ثم إلى اليابان، أنكذبه؟! إذن: قول الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عدلت المعنى من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية، وكأن الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه، فيقولون: نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعي أنك أتيتها في ليلة؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام..."[71].

المطلب الثاني: أقوال المفسرين في معنى الشجرة الملعونة وبيان القول الراجح

ومما أُشكِل فهمه على المفسرين في الآية أيضاً المعنى الذي أراده الله بالشجرة الملعونة سيما وأنه لم توصف شجرة بذلك الوصف مطلقاً في القرآن الكريم؟ فضلاً عن ذلك ما الذنب الذي اقترفته الشجرة حتى تلعن وهي من مخلوقات الله وآية من آياته ودليل على اقتداره سبحانه؟ وما المعنى الذي أفاده اللعن هنا؟.

اختلفت أقوال المفسرين في المعنى المراد بالشجرة الملعونة، وبعد الاطلاع على أقوالهم تبين أنهم انقسموا في ذلك إلى فريقين:

الفريق الأول: حمل الشجرة الملعونة على وجه الحقيقة (ويراد بها كل نبات له ساق)[72]، وهؤلاء اختلفوا في المراد بها إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: شجرة الزقوم، وهو قول جمهور المفسرين من أهل السنة من الأقدمين والمعاصرين[73]

وجه لعنة شجرة الزقوم: القائلون بهذا القول أجابوا عن الإشكال الوارد حول المعنى المراد باللعن الذي وصفت به الشجرة التي حملوها على شجرة الزقوم وذهبوا في ذلك مذاهب شتى يمكن إجمالها في الآتي:

1. أنها لعنت لخبث صفاتها التي وصفت بها في القرآن[74]، فمما جاء في وصفها (طلعها كأنه رؤوس الشياطين)، حيث شبهت برؤوس الشياطين، والشياطين ملعونون[75].
2. أو للعن أهلها وآكليها من الكفار والظالمين، ووصفت الشجرة باللعن على سبيل المجاز للمبالغة[76].
3. أو لأنها في أصل الجحيم وهو أبعد مكان من الرحمة، لأن كل ما ينبت في أصل الجحيم، فهو في نهاية البعد من رحمة الله[77].
4. أو لأنها مكروهة مؤذية، حيث يقول العرب لكل طعام كريه ضار ملعون[78].

وجه الفتنة في شجرة الزقوم

جاءت الشجرة الملعونة معطوفا بها على الرؤيا. فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس[79]. وعليه فإنّ الشجرة كانت سببا لفتنة هؤلاء الناس كما كانت رؤيا الإسراء سببا لفتنتهم. ولعل سائلا يسأل: ما وجه الفتنة في تلك الشجرة؟

معلوم أن الفِتْنة في اللغة تأتي بمعنى "الابتلاءِ والامْتِحانِ والاختبارِ، وأَصلها مأْخوذ من قولك فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ وفي الصحاح إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه ودينار مَفْتُون والفَتْنُ الإِحْراقُ"[80].

وهؤلاء يرون الفتنة في الشجرة الملعونة جاءت من وجهين[81]:

أحدهما: أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة.

الثاني: أن عبد الله بن الزبعري قال: إن محمداً يخوفنا. بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر.

القول الثاني: تمر وزبد (بلغة بربر)، قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر، والنار تأكل الشجر وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له، فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه: تزقموا[82].

القول الثالث: الكشوث[83]. وهي نبتة تلتوي على الشجيرات الصغيرة لا أوراق لها ولا تثمر يقول صاحب لسان العرب: "الكَشُوثُ والأُكْشُوثُ والكَشُوثَى كلُّ ذلك نباتٌ مُجْتَثٌّ مقطوعُ الأَصل وقيل لا أَصل له وهو أَصْفَرُ يتعلق بأَطراف الشَّوْكِ وغيره ويُجْعَلُ في النبيذ سَوادِيَّةٌ يقولون كَشُوثاء الجوهري الكَشُوثُ نبتٌ يَتَعلَّقُ بأَغصانِ الشجرِ من غير أَن يَضْرِبَ بعِرْقٍ في الأَرض قال الشاعر هو الكَشُوثُ فلا أَصلٌ ولا وَرَقٌ ولا نَسيمٌ ولا ظِلٌّ ولا ثَمَرُ"[84]. وجاء في المعجم الوسيط: "الكشوث وهو نبت لا ورق له ولا أفنان من الفصيلة العليقية يلتوي على البرسيم والكتان ونحوهما من النباتات ويعيش متطفلا"[85].

الفريق الثاني: حمل الشجرة الملعونة على سبيل المجاز، وعليه يكون المراد بها (الأصل الذي تطلع منه وتنشأ عليه فروع بالنسب أو بالإتباع على أصل اعتقادي)[86] فتكون الشجرة كناية عن المرأة، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجر[87]. وهذا وارد في اللغة. يقول صاحب (لسان العرب): "يقال فلان من شجرة مباركة أي من أصل مبارك[88]. وهؤلاء اختلفوا في المعنى المراد بالشجرة الملعونة إلى خمسة أقوال:

القول الأول: أنهم بنو أمية (الحكم بن أبي العاص)، وهو قول جمهور مفسري الشيعة[89]، ويرون أن هؤلاء الأمويين لعنوا لأنهم أساءوا في الحكم والخلافة لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة وأخذ الأموال من غير حلها وتغيير قواعد الدين وتبديل الأحكام[90]، وأيدوا قولهم بجملة أمور[91]:

1. بأنه مروي عن ابن عباس وهو ممن اشتهر في التاريخ الإسلامي بكونه مُفسراً للقرآن الكريم.
2. وبملاءمتة للرواية وللحديث المنقول عن عائشة والتي التفتت فيه إلى مروان وَقالت لهُ: «لعن اللهُ أباكَ وَأنت في صلبه، فأنت بعض مَن لعنهُ الله».
3. من الشواهد التي احتجوا بها لتأييد رأيهم قوله تعالى في الآية (26) مِن سورة إبراهيم (وَمثلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت مِن فوقِ الأرض ما لها مِن قرار) والتي حملوا فيها الشجرة الخبيثة على بني أمية، مستشهدين بأن كلمة (الخبيثة) تقترن مِن حيث المعنى بـ (الملعونة).

القول الثاني: اليهود، وينسب هذا القول إلى أبي مسلم الأصفهاني[92]، وممن أيده أيضاً بعض مفسري الشيعة المعاصرين: جواد مغنية[93] وناصر بن مكارم الشيرازي[94] وحسين فضل الله[95] واستدلوا عليه بأن الله تحدث عن لعن اليهود في آيات كثيرة في القرآن، فهم من جملة الطوائف الذين لعنوا في القرآن[96]، وإنما لعن الله اليهود لكونهم مصدر الفتن وأصل الفساد كما أثبتت حوادث التاريخ قديما وحديثاً[97]، ولما صدر عنهم من شنيع الأفعال في زمن النبي عليه الصلاة

والسلام وفي الوقت المعاصر فهم الذين تظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكروا ودبروا الحيل لقتله وإيقاع الضر به[98]، ولسيطرتهم على العديد من المقدسات الإسلامية وإشعالهم نار الفتنة والحروب في كل زاوية مِن زوايا العالم، وَافتعالهم العديد من الجرائم النكراء والمظالم بحق الشعوب[99].

وفتنتهم أنهم كانوا ينتظرون بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما بعثه الله كفروا به وقالوا: ليس هو الذي كنا ننتظره فثبطوا كثيراً من الناس بمقالتهم عن الإسلام[100].

القول الثالث: أبو جهل[101].

القول الرابع: عام يشمل أي مجموعة من المنافقين يتسلمون زمام الحكم ويفسدون ويسيئون في الحكم على غرار ما فعل الأمويون واليهود. يقول الشيرازي: "وَمِن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) في القرآن إشارة إلى أي مجموعة مُنافقة وَخبيثة وَمطرودة مِن رحمة الله تعالى وَمقام الربوبية، خصوصاً تلك المجاميع مِثل بني أمية واليهود قساة القلب، والمعاندين وَكل الذين يسيرون على خُطاهم. وَشجرة الزقوم في القيامة تمثل الأشجار الخبيثة في العالم الآخر، وَكل هَذِهِ الأشجار الخبيثة (المجاميع المعنية) هي لاختبار وَتمحيص المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا. إنَّ اليهود الذين سيطروا اليوم- زوراً وغصباً- على المقدسات الإسلامية والذين يشعلون نار الفتنة والحرب في كل زاوية مِن زوايا العالم، وَيفتعلون العديد من الجرائم والمظالم بحق الشعوب، إضافة إلى المنافقين الذين يتعاملون معهم تعاملا سياسياً وَغير سياسي، وكذلك كل المتسلطين الذين يسيرون على خُطى بني أمية في البلاد الإسلامية، وَيقفون ضدَّ الإسلام، وَيُبعدون المخلصين والمؤمنين مِن حركة المجتمع، وَيقومون بتسليط المجرمين والخبثاء على رقاب الناس، وَيقتلون أهل الحق والمجاهدين، وَيفتحون المجال لبقايا الجاهلية في استلام الأُمور والتحكُّم بالمقدرات... إنَّ هؤلاء جميعاً هُم فروع وأغصان وأوراق هَذِهِ الشجرة الخبيثة المعلونة، وَهم علامات اختبار وَمواقع امتحان للمؤمنين ولعامّة الناس في هَذِهِ الحياة الدنيا"[102].

القول الخامس: الشيطان[103].

أقول: الذين حملوا الشجرة الملعونة على الشيطان واليهود والمنافقين وغيرهم إنما لاحظوا أن جميع هذه الأصناف لعنهم الله في محكم كتابه لذا فسروا الشجرة الملعونة بها.

ونلحظ أن الذين فسروا الشجرة الملعونة باليهود جلهم من المفسرين المعاصرين الذين شهدوا ما يجري على الساحة في ضوء الواقع المؤلم من تصدر اليهود المرتبة الأولى في الإفساد وارتكاب الجرائم الشنيعة وإثارة الفتن والبلبلة وإشعال نار الحروب، والسيطرة على وسائل النفوذ والتحكم بالاقتصاد العالمي وتوجيهه كيفما شاءوا بما يخدم مصالحهم ومخططاتهم التي تسعى لهدم قيم الحضارة الإسلامية ومعالمها وأخلاقها. وهذا يؤكد أثر الواقع في اختلاف فهم النص القرآني والذي ظهر من خلال ترجيحهم بحملهم الشجرة الملعونة على اليهود، إذ يتأثر المفسر ببيئته وواقعه المعيش.

القول المختار في معنى الشجرة الملعونة

أرى أن القول الأقرب إلى الصواب ما عليه جمهور مفسري أهل السنة والجماعة وهو أن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم وهو ما أجمع عليه الحجة من أهل التأويل[104]، ويقوي هذا القول ما رواه البخاري في صحيحة عن ابن عباس: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} قَالَ هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ} شَجَرَةُ الزَّقُّومِ"[105]. ويؤيده أيضاً ما ورد في العديد من المواضع من كتاب الله التي جاءت فيها الإشارة إلى شجرة الزقوم وذمها منها: قوله تعالى: {إن شجرة الزقوم طعام الأثيم} الآية في سورة [الدخان: 43، 44)، وقوله: {إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم} في سورة [الواقعة: 51، 52]. وفي سورة الصافات آيات فيها أن الشجرة كانت فتنة للظالمين وهي {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ* إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ* إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ* فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} [62- 66: الصافات][106].

أقول: وزيادة على ذلك نلحظ أن هناك قاسما مشتركا بين هذه الآيات لا سيّما الواردة في سورة الصافات وبين آية الإسراء ألا وهو وصفها بأن الله جعلها فتنة، فهنا جاء التصريح بذلك أما في الآية مدار البحث فعلى اعتبار أن الشجرة الملعونة جاءت معطوفة على الرؤيا التي وصفها الله بجعلها فتنة للناس فتأخذ نفس الحكم.

أما باقي الأقوال فهي أقوال ضعيفة ولا يعتد بها لتعارضها مع السياق القرآني الذي وردت فيه الآية لا سيّما القول القائل إن المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية، بل ذهب ابن كثير إلى أنه شديد الضعف[107]، ووافقه الشنقيطي في ذلك [108]. ولا أحسبه إلا أحد الروايات الملفقة الموضوعة التي وضعها الشيعة زورا وبهتانا للطعن في بني أمية كعادتهم في اختلاق الأحاديث لتأييد باطل عقيدتهم والإعلاء من شأن أئمة أهل البيت، وهذا ما أكده ثلة من المفسرين المحققين منهم ابن عاشور ومحمد عزت دروزة. يقول ابن عاشور: "وهذا من الأخبار المختلقة عن ابن عباس، ولا إخالها إلا مما وضعه الوضاعون في زمن الدعوة العباسية لإكثار المنفرات من بني أمية، وإن وصف

الشجرة بأنها الملعونة في القرآن صريح في وجود آيات في القرآن ذكرت فيها شجرة ملعونة وهي شجرة الزقوم كما علمت. ومثل هذا الاختلاق خروج عن وصايا القرآن في قوله: {ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} [الحجرات: 11]"[109].

وهذا ما أكده محمد عزة دروزة حيث يقول: "ونحن نعتقد أن الرواية من مصنوعات الشيعة. وفي تفسير الطبرسي الشيعي رواية عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد الله أن الشجرة الملعونة في القرآن هي بني أمية، والهوى الحزبي والتعسف بارزان على هذه الروايات شأن كثير مما يرويه مفسرو الشيعة"[110].

أقول: سبقت الإشارة إلى أن القول القائل بأنّ الشجرة الملعونة هم بنو أمية هو أضعف تلك الأقوال وأشدها بطلاناً وذلك لأنه لا يستند إلى دليل لا من القرآن ولا من السنة، وليس له وجاهة من أي جهة كانت مقارنة بالأقوال الأخرى التي حملت فيها الشجرة الملعونة على الشيطان واليهود والمنافقين، فهذه وإن كان لها وجاهة من جهة أن جميع هذه الأصناف لعنهم الله في محكم كتابه إلا أنها تتعارض مع السياق القرآني الذي جاءت فيه الآية.

أقول: أما القول الذي حمل الشجرة الملعونة على اليهود فمع إقرارنا بأن اليهود هم أصل ومنبع الفتن والشر والإفساد بكافة صوره وأنواعه في العالم، وقد لعنوا كثيراً في أكثر من موضع في كتاب الله، لكننا لا نسلم حمل الشجرة الملعونة على اليهود لتعارضه مع السياق الذي جاءت فيه الآية بياناً للسبب الصارف عن عدم إجراء الخوارق على يديه الشريفتين صلى الله عليه وسلم بناء على إلحاح الكفار من قريش بغية إيمانهم واتقاء شرهم المتمثل في علمه سبحانه المسبق في الأزل بأن هؤلاء الكفار لن يؤمنوا حال إجراء تلك الخوارق، وستكون ردة فعلهم على غرار من سبقهم بالتكذيب والكفران، وضرب مثلا على ذلك بالرؤيا والشجرة الملعونة اللَّتَيْنِ بدل أن تكونا سببًا للإيمان بالله وتصديق رسوله كانتا سبباً في زيادة كفرهم وطغيانهم وجرأتهم على الإسلام وأهله.

ومما أجيب به عن شبهة أبي جهل وغيره من المشركين الذين أنكروا إنبات شجر الزقوم في النار لكونه يتنافى مع ما هو معلوم من إحراق النار الشجرة فكيف ينبت فيها:

1. أن الله خلق شجرة الزقوم من جوهر لا تأكله النار ومنها سلاسل أهل النار، وأغلالهم، وخزنة النار من الملائكة وحياتها وعقاربها، وليس ذلك من جنس ما في الدنيا[111].
2. شجرة الزقوم لا تشبه أشجار الدنيا أبداً، ولا يصح قياس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، لأن قوانين الدنيا ونواميسها تختلف عن قوانين الآخرة ونواميسها. وكما قال ابن عباس ليس بين الدنيا والآخرة إلا الأسماء. يقول الشيرازي: "إنَّ شجرة الزقوم لا تشبه أشجار الدنيا أبداً، وَلِهذا السبب فإنّها تنمو في النار، وَطبيعي أنّنا لا ندرك هَذِهِ الأُمور المتعلقة بالعالم الآخر إلاَّ على شكل أشباح وتصورات ذهنية"[112].
3. الله قادر على إنبات شجرة في النار وإبقائِها، ولا يعجزه شيء وهناك العديد من الأشياء لا تحرقها النار ولا تتضرر بها منها:

أ. ما هو معروف عن طائر السمندل وهو طائر إذا انقطع نَسْلُهُ وهَرِمَ أَلْقى نفسه في الجَمْر فيعود إلى شَبابه وقال غيره هو دابَّة يدخل النار فلا تُحْرِقه[113]، وقيل: هو حيوان من رتبة البرمائيات صغير الجسم غالبا يشبه العظاءة في شكلها العام وطائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا ونسيج من ريش بعض الطيور لا يحترق[114] قال صاحب (الكشاف): "هو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار"[115].

ب. معروف أن النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها[116].

ولا شك أن من قدر على أن يحفظ دبر السمندل من أن يحرقه النار وأحشاء النعامة من أذى الجمر وقطع الحديد المحماة التي تبلعها قادر على أن يخلق في النار شجرة لا يحرقها[117].

ج. أنّ الله برد النار على إبراهيم ولباسه لما ألقي فيها. يقول الشعراوي: النار التي أشعلوها لحرق نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام في أن ينجو إبراهيم من النار؟ لا... لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام، وإلا لما مكنهم الله من الإمساك به، أو سخر سحابة تطفئ النار، ولكن أراد سبحانه أن يظهر لهم آية من آياته في خرق الناموس، فمكنهم من إشعال النار ومكنهم من إبراهيم حتى ألقوه في النار، ورأوه في وسطها، ولم يعد لهم حجة، وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتسلب النار خاصية الإحراق: {قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم "69"} (سورة الأنبياء). إذن: فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً، وما حدث ليس طلاقة ناموس، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى[118].

4. هناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخري لا تؤثر فيه النار، بل هو يزداد إذا لمسها نظافة، ولذا يلبسه رجال المطافئ في الدول المتمدنة. يقول المراغي: "وفي الأرض عجائب متعددة، فالأرض مملوءة نارا، وما خلص من النار إلا قشرتها التي نعيش عليها، وما من شجر أو حجر إلا

وفيه نار، والماء نفسه مادة نارية فنحو 8/9 منه أوكسجين وهو مادة تشتعل سريعا، والتسع أدروجين، فأرضنا نار، ماؤنا نار، وأشجارنا وأحجارنا مليئة بالنار، وهذا العالم الذي نسكنه تتخلله النار"[119].

وجه الربط بين الرؤيا وبين الشجرة

ولعل سائلاً يسأل ما الرابط بين كلٍ من الرؤيا والشجرة الملعونة؟ ولم خصت هاتين الآيتين بالذكر دون غيرها رغم حصول العديد من الخوارق على يديه الشريفتين صلى الله عليه وسلم مثل حنين الجذع إليه، نبع الماء بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم، تكثير الطعام وغيرها... وما الخيط الرابط بين كلٍّ منهما؟.

إن نظرة أولية في تلك الأقوال التي قيلت في المراد بالرؤيا وبالشجرة الملعونة تكشف لنا دون أدنى ملابسة أن ثمة تشابهاً كبيراً بين الاختلاف والجدال والتساؤلات التي أثارتها حادثة الإسراء في أوساط كفار قريش لخرقها المألوف المعتاد في عرف الناس وعقولهم في ذلك الوقت من قطع تلك المسافة الطويلة بين مسجدين في مدة زمنية قصيرة لا تتجاوز الليلة وبين ذلك الخلاف الحاصل بين المفسرين حول المعنى المراد بكل من الرؤيا والشجرة الملعونة، فضلاً عن ذلك فإن التعبير عن ما رآه المصطفى ليلة الإسراء من عجائب وآيات بلفظ (الرؤيا) حام حوله الإشكال وأثار العديد من الخلافات بين المفسرين لما فيه من خرق لما اشتهر في اللغة من كون (الرؤيا) تستعمل في الرؤيا المنامية وكذلك التعبير عن الشجرة بوصفها بالملعونة حير عقول المفسرين وقارئي كتاب الله وألبابهم وتقييدها بمجيء هذه الصفة (في القرآن) زاد الأمر غموضا وتعقيداً لعدم ورود شجرة لعنت في كتاب الله.

على القول الراجح وهو أن المراد بالشجرة الملعونة شجرة الزقوم يكون الخيط الرابط بينها وبين رؤيا الإسراء من عدة وجوه:

الأول: أن كلتَيْهما كان مدعاة لحصول فتنة عظيمة، حيث اختلط الأمر على جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ما بين مصدق ومكذب ليميز الله المؤمن الحق الذي يوقن بقدرته تعالى المطلقة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان وبين الكافر الذي عميت بصيرته والشاك ضعيف الإيمان الذي لم يتجاوز الإيمان حنجرته.

ثانيا: كلتاهُما فيه خرق للناموس والقانون المألوف المعتاد ففي الإسراء تم قطع تلك المسافة البعيدة بين المسجدين في مدة زمنية قصيرة جدا لا تكاد تذكر خلافا لما اعتادوه من إمضاء الأشهر الطويلة في قطعها كما أن إخباره سبحانه بوجود شجرة خبيثة تدعى شجرة الزقوم وصفت بصفات تنبت في أصل النار جاء خارقا للمألوف ولما جرت عليه العادة أن النار تحرق النبات ولا ينمو فيها.

ثالثاً: كلٌّ من الرؤيا (ما رآه المصطفى من عجائب ليلة الإسراء) والشجرة الملعونة (شجرة الزقوم) لم تتحققا على وجه الأرض (العالم السفلي) بل تحققا في العالم العلوي.

رابعاً: كلتاهُما لم يشاهدهما كفار قريش بأم عينهم إنما كان مصدر العلم بهما عبر الخبر والسماع من فم الحبيب صلى الله عليه وسلم لحكمة لا يعلمها إلا الله خلافا لجميع الخوارق المادية التي أجراها الله على يد الأنبياء والمرسلين فقد كانت من جنس ما نبغ فيه أقوامهم واشتهروا فيه وألفوه في ذلك الوقت، وقد حصلت على مرأى منهم ومسمع.

يضاف إلى هذا أن رؤيا الإسراء لم تُرَ من قبل أحد من الناس باستثناء المصطفى صلى الله عليه وسلم كرامة له كذلك شجرة الزقوم التي وصفت بصفات لا نظير لها لم يشاهدها أحد من الناس ولا يمكن.

الخاتمة

الحمد لله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، الحمد الله تعالى في الأولى والآخرة، حمداً يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، كان من فضل الله عليَّ، أن رزقني العيش في ظلال آيات كتابه العظيم،الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (42: فصلت)، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القران ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد: فقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1. أشكلت الآية على كثير من المفسرين وحارت فيها عقولهم وألبابهم لأمرين:

الأول: لفظ (الرؤيا)، جمهور المفسرين حملوه على رؤيا الإسراء وهو الراجح، وهذا ما يتسق مع اسم السورة التي وردت فيها والذي صدرت بالحديث عن حادثة الإسراء التي أسرى فيها المصطفى عليه السلام بروحه وجسده في اليقظة وليس في المنام ورأى فيها من الآيات والعجائب الكثير، فلو كانت مناما لما أحدثت تلك الفتنة الهائلة في أوساط كفار قريش حتى حدا الأمر إلى ارتداد بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، ولكن على هذا القول يواجهنا إشكالية التعبير عن الإسراء بلفظ (الرؤيا) المشهور لغة في مايرى في المنام، ومما أجابوا عن الإشكال بأن لفظ الرؤيا كما اشتهر استعماله فيما يراه النائم كذلك تستعمل في الرؤية عيانا في اليقظة واستشهدوا على ذلك بما ورد في الشعر العربي.

في حين أنَّ هذا اللفظ (الرؤيا) دفع بعض المفسرين إلى

القول إن الإسراء كان مناما، وبعضهم قال بمدنية الآية وصرف الرؤيا إلى غير رؤيا الإسراء وحملها على ما رآه عليه الصلاة والسلام في المنام عام صلح الحديبية، وحملها آخرون على ما رآه المصطفى عليه الصلاة والسلام في المنام من مصارع كفار قريش في بدر والبعض، وقسم ثالث حملها على رؤيا بني أمية في المنام بدافع التعصب المذهبي وأثر التشيع.

الثاني: (الشجرة الملعونة) يكمن الإشكال في وصف شجرة باللعن رغم عدم ورود هذه الصفة لأي شجرة في القرآن مطلقا، والذي ترجح لدينا أنها شجرة الزقوم التي وصفت بصفات كثيرة في كتاب الله سيما في سورة الصافات، وقد أحدث وصفها هذا فتنة عظيمة في أوساط الكفار من قريش لاستبعادهم وإنكارهم إنبات شجرة في النار لمخالفته المعهود أن النار تحرق الشجر ولا تنبتها. وإنما وصفت باللعن إما للعن آكليها من الكفار أو لكونها من الأشياء المؤذية الضارة أو لكونها في الجحيم وهو أبعد ما يكون عن رحمة الله.

خلص البحث إلى أن كلا اللفظين ينطوي على أسرار من الإعجاز المتجلي في دقة اختيار اللفظة القرآنية وأن الباري إنما عبر بهذين اللفظين: الرؤيا (عن رؤيا الإسراء) والشجرة الملعونة عن (شجرة الزقوم) قاصداً لفت الأنظار إلى تلك الآية الخارقة المادية التي لم يحصل لها نظير (حادثة الإسراء) التي أثارت حولها الكثير من الخلاف والجدل والتساؤلات حتى أفردت سورة كاملة في القرآن وسميت باسمها كذلك هذانِ اللفظانِ حام حولها الكثير من الإشكال والجدل والخلاف.

فضلاً عن ذلك فإن تعبير الباري عن ما رآه المصطفى ليلة الإسراء بلفظ الرؤيا جاء خارقا للمشهور في الاستعمال اللغوي تماما كما كان الإسراء خارقا لحدود الزمان ففيه قطع النبي الكريم تلك المسافة الشاسعة بين المسجدين الحرام والأقصى في مدة زمنية قصيرة لا تكاد تذكر مع ما يستغرقه السفر بينهما في العادة. كذلك التعبير عن شجرة الزقوم بالشجرة الملعونة جاء خارجاً عن المألوف والمعنى الحقيقي للَّعْن (الطرد والإبعاد من الله) وانصرافه إلى المجاز ليفيد دلالات متعددة أجاب عنها المفسرون. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الهوامش

(1) النصيرات، ج. (2008)، بحث عن أثر الواقع في اختلاف فهم النص القرآني من مؤتمر التعامل مع النصوص الشرعية (القرآن والسنة) عند المعاصرين، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ص1.

(2) الخالدي، ص. (2002)، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط1، ص81.

(3) القَشْب، وهو خَلْط الشَّيء بالطَّعام، ولا يكاد يكون إلاّ مكروها. انظر: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (اتوفى: 395هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر، 1979م، ج5، ص75.

(4) الزمخشري، أ. (2009) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديث وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط الثالثة، ص601.

(5) الطباطبائي، م. (1997) الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت لبنان، ط الأولى 1997م ج13، ص133-134.

(6) الخطيب، ع. (توفي بعد1390هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ج8، ص510.

(7) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج15، ص2.

(8) ابن عاشور، م. (2000) (توفى: 1393هـ)، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ج14، ص5-6.

(9) قطب، س. (2003) في ظلال القرآن، بيروت: القاهرة، دار الشروق 2003 (ط32)، ج4، ص2208.

(10) المرجع السابق نفسه، ج4، ص2208- 2209.

(11) ينظر: الرازي، محمد فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج20، ص359، والبقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية- بيروت- 1415هـ- 1995م،ج4، ص398-399 وأبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت: 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة، ج5، ص181 والمراغي، أحمد بن مصطفى (توفي: 1946)، تفسير المراغي، (ط1)، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، ج15، ص65.

(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص116.

(13) دروزة، م. التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، الطبعة: 1383هـ، ج3، ص402.

(14) أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي

المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة 1، ج7، ص279 والزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج1، ص4803.

(15) أبو حيان، م. (1420) البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر: بيروت، ط1420هـ، ج7، ص367.

(16) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج13، ص136.

(17) أنظر: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، [224– 310هـ] جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ– 2000م، ج17، ص479 وأبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص367.

(18) الطبري، جامع البيان، ج17، ص478.

(19) وهو ما اختاره ابن عطية ورجحه انظر: ابن عطية، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1422هـ، ج3، ص467–468.

(20) أنظر: الزمخشري، الكشاف، ص601 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص116.

(21) الزمخشري، الكشاف، ص106.

(22) أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت، دون طبعة، ج8، ص4410–4411.

(23) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص282، الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،ج3، ص342.

(24) ذكره أبوحيان، البحر المحيط، ج7، ص367 مع العلم أنني لم أعثر على تفسير العسكري.

(25) التحرير والتنوير، ج 14، ص116.

(26) الشعراوي، م. (1997) خواطر الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ج14، ص8642.

(27) دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية– القاهرة، الطبعة: 1383هـ، ج3، ص402.

(28) التفسير القرآني للقرآن، ج8، ص510.

(29) التحرير والتنوير، ج14، ص116.

(30) انظر: الطبري (310هـ)، جامع البيان، ج17، ص480 ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [توفي: 774هـ]، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ– 1999، ج5، ص92467 والفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج20، ص361 والبحر المحيط، ج7، ص367، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5، ص181 الألوسي، روح المعاني، ج15، ص105 ومن المعاصرين تفسير الشعراوي، ج14، ص8644 وطنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة القاهرة، ط1 الوسيط، ج8، ص383.

(31) الشنقيطي، محمد بن المختار الجنكي، أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت– لبنان، 1415هـ– 1995م، ج18، ص309– 310.

(32) جامع البيان، ج17، ص484.

(33) أبو مسلم الأصفهاني، م. تفسير الأصفهاني، جمع وإعداد وتحقيق: خضر محمد نبها، دون سنة نشر ودون طبعة، ص177.

(34) جامع البيان، ج17، ص483.

(35) المرجع السابق نفسه.

(36) أنظر الطباطبائي، الميزان، ج13، ص137 مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران، ط الرابعة، 2007م،ج5 ص60، الشيرازي، ناصر بن مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب، إيران، ط الأولى، دون سنة نشر، ج7، ص331 فضل الله، حسين، من وحي القرآن، دار الملاك، بيروت، ط الثانية 1998م، ج14 ص164–165.

(37) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن نصر الناصر، دار طوق النجاة، ط الأولى 1422هـ، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء)، ج6، ص2589.

(38) مغنية، الكاشف، ج5 ص60.

(39) الطبرسي، مجمع البيان، ج6، ص202.

(40) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5، ص182.

(41) جامع البيان،ج17، ص483.

(42) رواه البخاري، انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَاب {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}، ج6، ص86.

(43) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص117.

(44) أنظر: القرطبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، دون سنة نشر، ج10، ص282، البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1418هـ، ج3، ص259.

(45) الطباطبائي، الميزان، ج15، ص140.

(46) خان، ص. (1992)، فتح البيان في مقاصد القرآن، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري: المكتبة العصرية، ج7، ص414.

(47) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،ج5، ص92 ابن عطية

المحرر الوجيز، ج3، ص468 الشنقيطي، م. (1995)، أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت: لبنان، ج18، ص311.

(48) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص92.

(49) الشوكاني، فتح القدير، ج3، ص342.

(50) محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ج3، ص404.

(51) المرجع السابق نفسه.

(52) دروزة، التفسير الحديث، ج3، ص404.

(53) إرشاد العقل السليم، ج5، ص182.

(54) المرجع السابق نفسه.

(55) الطباطبائي، الميزان، ج15، ص140.

(56) إرشاد العقل السليم، ج5، ص182.

(57) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5، ص181.

(58) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص468.

(59) ابن الجوزي، ع. (1404)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة، ج5، ص53.

(60) الألوسي، روح المعاني، ج15، ص105.

(61) تفسير الشعراوي، ج14، ص8648 طنطاوي، ج8، ص383.

(62) انظر: إرشاد العقل السليم، ج5، ص181-182 روح المعاني، ج15، ص105.

(63) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص468.

(64) إرشاد العقل السليم، ج5، ص181-182.

(65) تفسير الشعراوي، ج14، ص8644.

(66) الطباطبائ، الميزان في تفسير القرآن، ص137-138.

(67) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (اتوفى: 395هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر، 1979م، ج2، ص392.

(68) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، دون طبعة، ج1، ص429.

(69) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج14، ص291.

(70) ابن سيده، ع. (توفي: 458هـ) المخصص، دار الكتب العلمية بيروت، بدون سنة نشر، ج5، ص108.

(71) الشعراوي، ج 14، ص8649- 8650.

(72) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص191.

(73) أنظر: جامع البيان، ج17، ص486، المحرر الوجيز، ج3، ص468 تفسير القرآن العظيم، ج5، ص92 مفاتيح الغيب، ج10، ص81 روح المعاني، ج15، ص105، التحرير والتنوير، ج14، ص117، في ظلال القرآن، ج4، ص2238، الوسيط في تفسير القرآن، ج13، ص133.

(74) الشنقيطي، أضواء البيان، ج18، ص311.

(75) الطبري، جامع البيان،ج17، ص487.

(76) أضواء البيان، ج18، ص311، تفسير المراغي، ج15، ص67.

(77) المحرر الوجيز، ج3، ص468 إرشاد العقل السليم، ج5، ص182.

(78) المظهري، محمد ثناء الله، تفسير المظهري، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، باكستان، ج5، ص454.

(79) جامع البيان، ج17، ص487.

(80) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط الأولى، ج13، ص317.

(81) البغوي محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516هـ]، معالم التنزيل، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417هـ- 1997م، ج5، ص103.

(82) المحرر الوجيز، ج3، ص468.

(83) جامع البيان، ج17، ص486.

(84) لسان العرب،ج2، ص181.

(85) مصطفى، إ. المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دون طبعة، ج2، ص123.

(86) الطباطبائي، الميزان، ج13، ص135.

(87) زاد المسير، ج5، ص54.

(88) ابن منظور، لسان العرب ج4، ص394.

(89) الطباطبائي، الميزان،ج13، ص136، فضل الله، من وحي القرآن، ج14، ص163، الشيرازي، الأمثل، ج7، ص331 جواد مغنية، الكاشف، ج5، ص60.

(90) أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص369.

(91) الأمثل، ج7، ص331.

(92) تفسير الأصفهاني، ص177.

(93) مغنية، الكاشف،ج5، ص60.

(94) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج7، ص332.

(95) من وحي القرآن، ج، ص164.

(96) حسين فضل الله،، من وحي القرآن، ج14، ص163.

(97) مغنية، الكاشف، ج5، ص60.

(98) أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص369.

(99) الأمثل، ج7، ص332.

(100) أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص369.

(101) الكشاف، ص601.

(102) الأمثل، ج7، ص332.

(103) الكشاف، ص601.

(104) الطبري، جامع البيان، ج17، ص487.

(105) رواه البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن نصر الناصر، دار طوق النجاة، ط الأولى 1422هـ، كتاب التفسير، بَاب {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}، ج6، ص86.

(106) دروزة، التفسير الحديث، ج3، ص404.

(107) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص92.
(108) الشنقيطي، أضواء البيان،ج18، ص311.
(109) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص118.
(110) دروزة، التفسير الحديث، ج3، ص404.
(111) ابن حجر، فتح الباري، ج11، ص505.
(112) الأمثل، ج7، ص330.
(113) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص348 والزبيدي، تاج العروس، ج1، ص7190.
(114) المعجم الوسيط، ج1، ص936.
(115) الزمخشري، الكشاف، ص60.
(116) المرجع السابق نفسه.
(117) الكشاف، ج1، ص60.
(118) تفسير الشعراوي، ج14، ص8641.
(119) تفسير المراغي، ج15، ص67.

المصادر والمراجع

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (توفي: هـ)، زاد المسير في علم التفسير، (ط3)المكتب الإسلامي: بيروت، 1404هـ.
ابن سيده، أ. المخصص، دار الكتب العلمية بيروت، بدون سنة نشر.
ابن عاشور، م. (2000) التحرير والتنوير، (ط1)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت: لبنان.
ابن عطية، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي (توفي: 541هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دون طبعة، دار ابن حزم، دون سنة نشر.
ابن فارس، أ. (1998) مقاييس اللغة، (دون طبعة)، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر.
ابن كثير، أ. (1999)، تفسير القرآن العظيم، (ط2)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع.
ابن منظور، م. لسان العرب، (ط1)، دار صادر، بيروت، دون سنة نشر.
أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت: 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، د. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون سنة نشر.
أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان (توفي 745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر: بيروت، ط1420هـ.
أبو زهرة، م. زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت، دون طبعة.
الألوسي، ش. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دون طبعة)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
البخاري، م. صحيح البخاري، (ط1)، تحقيق: محمد زهير بن نصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ.
البغوي م. معالم التنزيل، (ط4)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1997م.
البقاعي، ب. (1995) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية: بيروت.
البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (ط1)، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي: بيروت، 1418هـ.
الخالدي، صلاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط1، 2002م.
خان، ص. (1992)، فتح البيان في مقاصد القرآن، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري: المكتبة العصرية.
الخطيب، ع. (توفي بعد1390هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة: دون سنة نشر.
دروزة، م. التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، 1383هـ.
الرازي، م. (1981) مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت.
الراغب الأصفهاني، أ. (1412) مفردات ألفاظ القرآن، (ط1)، دار القلم، دمشق.
الزمخشري، أ. (2009) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (ط3) اعتنى به وخرج أحاديث وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة: بيروت.
الشعراوي، م. تفسير الشعراوي، بدون طبعة، جمع وتحليل: يحيى وزيري، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، دون سنة نشر.
الشنقيطي، (1995) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (توفي: 1393هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان.
الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة.
الشيرازي، ناصر بن مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، (ط1)، دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب، إيران، دون سنة نشر.
الطباطبائي، م. (1997)، الميزان في تفسير القرآن، (ط1)، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت: لبنان.
الطبري، م. (2000) جامع البيان في تأويل آي القرآن، (ط1) تحيقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة.
طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (ط1)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة القاهرة، دون سنة نشر.
فضل الله، ح. (1998) من وحي القرآن، (ط2)، دار الملاك،

بيروت.
القرطبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (توفي 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت، دون سنة نشر.
قطب، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (توفي: 1385هـ)، في ظلال القرآن، ط 32، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1412هـ/2003م.
المراغي، أحمد بن مصطفى (توفي: 1946)، تفسير المراغي، (ط1)، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، دون سنة نشر.
مصطفى، إ. (دون سنة نشر) المعجم الوسيط، دون طبعة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
المظهري، م. (1412)، تفسير المظهري، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، باكستان، 1412هـ.
مغنية، م. (2007)، التفسير الكاشف، (ط4)، إيران، قم: مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.

Read on the Verse And [Remember, O Muhammad], when We told you, "Indeed, your Lord has Encompassed the People."And We did not Make the Sight which We showed you Except as a Trial for the People, as was the Accursed Tree [Mentioned] in the Qur'an. And We threaten them, but it Increases them not Except in Great Transgression (Al- isra: 62)

***Asmaa Naif Mohammad Al-Khalilly* ***

ABSTRACT

This research discusses the apparent ambiguity in the Verse of Allah: "When we said to you: 'Indeed, your Lord encompasses all people. 'We did not make the vision which We showed to you, and the tree cursed in the Quran except to be a trial for people, and We frighten them, but it only increases them in great insolence". {Al-'Isra' 60}. After stating the answers of the scholars and commentators about this ambiguity and discussing it in the light of the evidences taken from the language, context and the adage, it was concluded that there is a rhetorical secret in the Quranic expression in the two verbal (Vision) and (The cursed tree),that overshadows upon the temporal era in which the miracle "The Night Journey" (*of prophet Mohammad (PBUH) from Makah to Jerusalem and his ascension to the seventh heaven*) was occurred and it was consistent with the overall situation and the prevailing environment of the time of its occurrence,as what raised by it from differences,confusion and disorder among unbelievers and believers.

Keywords: The problem of the Koran, Verse.

* Department of Islamic Studies, Northern border University, Kingdom of Saudi Arabia. Received on 25/8/2015 and Accepted for Publication on 3/1/2016.